مجلة المجتمع

العدد : ١٨٨ الموافق في ذو القعدة ١٤١٧ هجري ٤ / ١٩٩٧ ميلادي

كلمات في الصميم : حولوا الشعار إلى واقع !	بقلم : صلاح الدين بن إبراهيم

نشرت صحيفة إسلامية - قبل أكثر من عقدين من الزمان - مقالات طرح كاتبها مجموعة ملاحظات يأخذها على كتابات سيد قطب رحمه الله تعالى.

فثارت عواطف المحبين ، وكُتبت ردود كان معظمها ينادي : « **سيد قطب... افهموه ولا تظلموه** » وجاء بعضها عاطفي المزاج فخرج عن أصول اللياقة.

وقبل عقد من السنين لقيت شاباً جدِّي القسمات ، علمت أنه صالح السيرة ، فسألني عن رمز إسلامي في بلد عربي : أتعرف فلاناً ؟! أجبته : لا أعرفه شخصياً ، ولكن أهل الخير يثنون عليه ، وتشهد له جهوده في مجال التعليم والثقافة والأدب بالفضل. فقال الشاب : ولكني أخالف هؤلاء الفضلاء ! وأرى أنه (...) !!.

فوجئت بحدة الشاب وقسوته في الحكم ، وسلاطة لسانه ! ؛ فقلت له : هوّن عليك ، وأخبرني بما عندك ، عسى أن نتعاون على فهم أفضل لما تشكو منه. قال : هل اطلعت على كتابه الذي ألفه عن حياة سيد قطب ؟!. قلت له : نعم ، والكتاب فيه جانبان ؛ تاريخيّ وتفسيري. وقد يستوقفك ما لا يستوقفني ، فقلْ ما تراه عيباً !.

قال : إن الكاتب يزعم أن بعض أفكار سيد قطب كانت متأثرة بجو الفتنة الذي عاش فيه سنوات... وهذا كذب... لأن سيد قطب رحمه الله كان ينطلق من القرآن والسنة ، ويذكر الدليل تلو الدليل على ما يقرره. لقد حكم بالقرآن والسنة على الواقع ، ولم يأت بشيء من عنده !.

قلت له : إن الكاتب يرى رأياً حسناً في سيد قطب رحمه الله ، وقد أثنى عليه ودافع عنه بحرارة وصدق ، ويحق للكاتب أن يخالف سيداً فيما فهمه من القرآن والسنة ، سواء كان مصيباً أم مخطئاً ، ويجب علينا أن نُحكِّم قواعد القبول والرفض الشرعية ، وهذا من العدل والإنصاف. ولا يحط من قدر سيد رحمه الله أن يخطئ ، لأنه في نظر الشرع مأجور. ثم إن علينا أن نفرق بين التخطئة وبين التجريم والتأثيم ، أضف إلى ذلك أن النقد الموضوعي هو الذي يُدخل عوامل البيئة وظروف المرحلة في تقويم الآراء والمواقف والأفكار... فالإنسان لا يتحرك في فراغ... وليس عيباً أن يتفاعل مع مؤثرات زمانه ، بل العيب كل العيب أن يدعي مدعٍ أن إنساناً ما فوق مؤثرات الزمان والمكان !.

سكت الشاب ، وأظن أنه سكت احتراماً لا اقتناعاً !!.

لقد ذكرت هذه القصة لأن مضمونها يتكرر ، وذلك على الرغم من ارتفاع مستوى المعرفة النظرية بضرورة وفوائد النقد ، وهذه المشكلة دفعتني إلى التأمل في واقع أمتنا ، فوجدت أن عجز غالبية التيار الإسلامي عن ممارسة عملية المراجعة « **النقد** » لقادتهم واختياراتهم ومناهجهم ، إنما يمثل حالة من حالات شلل تيارات وحركات النهوض التي ظهرت في بلاد المسلمين في العصر الحديث - سواء تبنت الإسلام أو اعتمدت على فكر وافد - وعجز تلك التيارات والحركات عن تحويل كثير من رؤاها وتطلعاتها إلى واقع ملموس يرجع إلى علل تفتك بالأمة ، فالجميع يعانون من آفة تداخل المفاهيم والمبادئ ، واختلاط الأهداف بالوسائل ، ومزج الفكر بالأشخاص.

إن تقديس الأشخاص ، والاجتهادات الصادرة عنهم ، مرض رهيب يفرض التقليد الذي يبطل منفعة العقل ، ويُلزم بتكرار ما فهمه أشخاص في مرحلة لها شروطها وملابساتها. والسبب في استمرار هذا الداء العضال يكمن في كون معظم الناس لا يفرقون بين « **النقد** » وبين « **الهدم** » ، أو بين محب غيور وآخر حقود مغير. وأكرر القول بأن هذا المرض ليس محصوراً بالتيار الإسلامي ، بل إننا نلمسه على صعيد الأمة ، بدءاً بالأسرة وانتهاءً بمؤسسة الدولة.

إننا في أمس الحاجة إلى الانتقال من دائرة العبارة إلى دائرة الممارسة ، وبخاصة في مجال الأخلاق الجماعية ، ومنها النقد ، حتى نتمكن من مراجعة ما صنعه القادة ، وما قدمته الجماعة ، بقصد تصويب الفهم وتحريض الاجتهاد في كل جيل ومرحلة.

ليس عيباً أن نعتبر بتجارب الآخرين ؛ فلقد شهدنا نظامين تصارعا طيلة عقود من الزمان ، وأعني : النظام الاشتراكي ، والنظام الرأسمالي. وشهدنا سقوط النظام الاشتراكي... وتساءل الناس عن السبب في انهيار الاشتراكية وبقاء الرأسمالية ؟!. والعارفون بالأمور يذكرون أسباباً متعددة ، ويهمنا هنا أن نشير إلى سبب واحد هو : عجز الاشتراكيين عن الاجتهاد ، وتقديسهم لمقولات وإجراءات مضت ، وقدرة الرأسماليين على تجديد الرؤية ، ونقد الأمس ؛ بأشخاصه وإجراءاته ، وتجاوز ما ظهر لهم ضرره وفساده.

وعملية النقد لا تؤدي دورها إلا إذا كانت مستمرة وقائمة على أسس وضوابط ، فإذا أُهملت حيناً من الدهر ، فقد لا تستطيع الجماعات أو الأمم تجاوز تراكمات تقديس الأشخاص والماضي إذا أدركت ذلك في وقت متأخر ، كما حصل في زعامة الاتحاد السوفييتي قبل انهياره ، فقد حاولوا استنهاض الاجتهاد ، ووجهوا نقداً لماضي الفكر والممارسة ، إلا أن هذا لم ينفعهم بشيء.